مفهوم "الإصلاح" أو نحو إصلاح لفهم المصطلح

مفهوم "**الإصلاح**" من المواضيع التي سال حولها مداد كثير، وصُرف لها من البحث والدرس والتحليل ما هو في حجمه مقارنة بغيره كبير.

وما زال الأمر إذا ما أبعد التعالم والتفلسف في حاجة إلى ضبط وتحديد؛ ليس لصعوبته، وإنما لارتباط المفهوم ومراميه برغبات دعاة الإصلاح، وإسقاطهم دلالاته ومعانيه على محتويات ومضامين مشاريعهم ورؤاهم للتغيير والنهوض بالمجتمع.

ولهذا ساد بين جموع المنادين اليوم بالإصلاح في تحديد هذا المفهوم بدقة **إشكال**... ولهذا الإشكال أبعاد يتجلى فيها بثقله نرى أن نعطيها الأولوية في إلقاء الضوء على الموضوع الذي نحن بصدده، حتى نتبين نتوءاته وتضاريسه، وما يعترضه من عقبات تحتاج إلى اقتحام ضمن برنامج شمولي للإصلاح؛ بهدف حماية وتطوير حقول الاصطلاح.

فبدون ذلك البرنامج سيظل الإشكال قائمًا مادام الواقع برمته متعطشًا للإصلاح، وفي حاجة ماسة إلى التخلص بداية من منهج توظيف دلالات المصطلحات وفق النوايا والرغبات، مع تعطيل ميزان العلم، وإلغاء ضوابط اللغة وقواعد الاصطلاح، والإصرار على تهديد أمن خزان المصطلحات...

١. ناصية الإصلاح الأمن:

البعد الأول من الإشكال يتجلى في غياب الأمن اللغوي/ المصطلحي، وسيادة الفوضى في حقول المصطلح؛ بل سيادة الاستبداد في انتزاع الدلالات الأصيلة للمصطلحات، وإجبار المستعمل على وجه من المفهوم والدلالة والمعنى للمصطلح، يصب في تبجيل المستبد وقبيله، مثلما فعل فرعون حين سطا على مفهوم "**الرشاد**" الذي نادى به المؤمن، مؤمن آل فرعون: "**وَقَالَ الَّذِي آَمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ**"[1]، فوظفه فرعون -بعدما لمس خطره على سلطته- لصالحه، وطبعه منعا لكل إصلاح ورشاد يهدده بخطاب استبدادي فحواه أن لا رشاد إلا ما يراه ولا رشاد غيره : "**وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ، وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ * يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا. قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ**"[2].

وليس عجبًا أن تسمى (في العديد من المصاحف المتداولة) سورة غافر التي وردت فيها هذه الآيات بسورة "**المؤمن**"؛ حتى يشار لمرجعية ذلك الرجل ويشاد بسديد قوله وفكره، فالجانب الهام من الصراع كان صراع توظيف المصطلح وفرض دلالته ومفهومه.

والقاعدة العامة في كافة الحقول المعرفية والسياسية والاجتماعية والثقافية أن **أول الإصلاح الأمن**، ولا أمن إذا ما منعت العقول من حرية الفكر، أو أخرست الألسن عن إعمال النقد، أو ساد الاستبداد وأكره المجتمع على وصف بطش المستبد بسبيل الرشاد! أو تمكن من الاستحواذ على العقول طاغوت الاستلاب الذهني المتميز بجاذبية الصورة وتجديد وظائف الأسطورة.

ولئن كان غياب الأمن لا يقطع نشاطًا لأهل الصلاح، ولا يمنع تفكيرًا في الإصلاح، بل لكبير الحاجة إليه يثري الحوار ويذكي الجدل حول دلالات الإصلاح ومعانيه، ويكثر سواء لدى التواقين إليه أو لدى المستفيدين من توظيفه من تعدد أنواع برامجه وبلورة مشاريعه؛ فإنه إذا لم يكن من أولياته تحقيق

الأمن الفكري والثقافي، وسيادة ميزان الانضباط اللغوي؛ قلّ أن يسلم المجتمع من ولوج دائرة الاستبداد مرة أخرى عبر ليّ معاني "**الإصلاح**"، واغتيال دلالاته على قويم الصّلاح.

فأول ما يسري إليه الاستبداد حسب ما لمسناه في استقراء نهوض وانهيار الحضارات حقول المصطلح، وأول ما يشوه شكله في عناصر الهوية، ويخسف أمنه من مكتسبات المجتمع الحضارية خزان المصطلحات، لحاجة المستبد إلى توظيف المفاهيم الناعمة والمعاني البراقة لضمان البقاء عبر ادعاء النهوض بالبلاد، وهدي المجتمع نحو سبيل الرشاد.

فالعرف ممارسة اللص سطوه في خفاء وتجنب للضوضاء، والسنة أن لا يجهر المستبد ببطشه إلا حين إخفاق مقاولاته الاصطلاحية وجوقاته الإعلامية في تزيين عمله، وتجميل حركته. وسيادة الأمن مانعة لهذا من السطو وذاك من البطش؛ وحقول اللغة ببقاع أولي النهى أولى بالحفظ وأحق بالأمن.

٢. وبداية الإصلاح الاستقلال:

نحن نرى -بعد توفر القدر الضروري من الأمن- أن **أول الإصلاح الاستقلال**. الاستقلال الفكري أولاً، واستقلال المصلحين ومتزعمي الإصلاح أساسًا، سواء عن الضغوط الخارجية أو جاذبية مصالحهم الذاتية. ومن ثم فإننا نعد انعدام الاستقلال بمثابة البعد الثاني للإشكال الذي يحوط بمفهوم الإصلاح، ويولد الضبابية التي تمكن أهل الفساد من استغلال توظيفه والحيلولة دون اتساع رقعة الوعي بسليم دلالاته ودقيق معانيه.

فالحركات الإصلاحية التي عرفها عالمنا العربي الإسلامي طوال تاريخه الحديث كانت تهدف للتحرير من الهيمنة الأجنبية، والاستقلال من ربقة الاستعمار؛ بل كان ذلك التحرير وذاك الاستقلال هما الدافع الأساسي لانبثاقها وجمع الناس حولها وانخراطهم في مشروعها ومواصلتهم مساندتها.

وفقدان الاستقلال الفكري والثقافي وضعف السيادة اللغوية لصيق باهتزاز الأمن المعرفي وتصدع أركانه، ومدخل خطير لاستتباب الفوضى في تحديد مفردات الجهاز اللغوي ومصطلحاته ومنظومة أفكاره. فارتهان الفكر في منظومته وأفكاره لجهات خارج الدار يسمح بتزايد عمليات السطو على المفاهيم، إلى جانب السطو على القدرات والخيرات، من سواعد وعقول وأموال ومدخرات.

ولهذا كانت بداية الإصلاح في الحرص على الاستقلال الفكري، وإبعاد دعاة الإصلاح المرتهنين لجهات خارجية، ومقاولي الإصلاح الذين يسعون لإنجاز صفقات سياسية وفكرية لصالح دول أجنبية تواقة للنفوذ والهيمنة. فهؤلاء إن لم يفسدوا فحتمًا لن يأتوا بجديد، وما نموذج العراق عنا ببعيد!

٣. وأرضية الإصلاح العلم:

البعد الثالث الذي تزداد به حدة الإشكال -جنبًا إلى غياب الأمن اللغوي- هو ضعف مستوى المجتمع العلمي والفكري، وافتقاره إلى الاستثمار في ريادة النوابغ وأهل الدراية، وابتلاؤه بعموم داء الأمية الحضارية بين أعضاء سراته.

ذلك أن **اختبار أنواع الطيب لاختيار أنفسها لا يستفتى في شأنه من يعيش في المستنقعات!**[٣] وتلك قاعدة قويمة في مجال الإصلاح، جدير بنا أن نستوعب مضامينها وأبعادها، ويكفي للتنبيه على رسوخ أصالتها استحضار قول الشاعر الجاهلي الأفوه الأودي:

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم
ولا سراة إذا جهالهم سادوا
والبيت لا يبتنى إلا له عمد
ولا عماد إذا لم ترس أوتادُ

فهل يستطيع من ظل يعاني من الضعف في الإقدام على الإصلاح، ومن يفتقر إلى الخبرة في ممارسة الإصلاح، وأقصى ما لديه من طموح هو تقليد تجارب تفتقر للصلاح، من أن يحدد بوعي وعلم وعدم تحيز معاني ودلالات مفهوم "**الإصلاح**"؟

أكيد أن الأمم التي لديها مواقع راقية في المجال السياسي والاجتماعي والثقافي والفكري، وتتميز شعوبها بمستويات عالية من الحكمة والعلم والمعرفة؛ تنعم بالترابط القوي بين مفهوم الإصلاح وممارسة الإصلاح، أكثر من تلك التي لا زال البون شاسعًا بين قولها وفعلها، وبين سوءات واقعها وطوبويات مشاريع غدها.

وأنصع من ذلك حقيقة أن لو كنا في مستوى القيادة العلمية والريادة الحضارية؛ لكان تحديدنا لمفهوم "**الإصلاح**" أوسع وأشمل، ومشاريع الإصلاح الناهضة لدينا في ترسيخ دلالاته عبر نقائها وصفائها أقوى وأكمل، وتوليد المصطلحات التي تفرضها سعة استعماله وتوسع نفوذ سلطانه أحسن وأمثل. فالإصلاح علم رصين ومشروع متين يستعصي ضبط محركات تنظيره وترويض آليات حركته على الجهلاء!

٤. وتطوير الإصلاح الممارسة:

هناك بعد رابع للإشكال القائم في وجه التحديد السليم لمصطلح "**الإصلاح**"،بتوجهاته السياسية والاقتصادية والاجتماعية المعاصرة، يتجلى في كون الإصلاح -لواسع الممارسة عند الغير- قد أضحى في جوانبه الدلالية منظومة مصطلحية كاملة، تضم العديد من المصطلحات الفرعية، معظمها مبتكر من طرف من له السبق في ممارسة الإصلاح والتوق لما هو أصلح.

فالمشكلة في المصطلح، أيًّا كان المصطلح، وخاصة منه النوع السياسي والاجتماعي؛ تكمن أساسًا في كونه يحتاج دومًا إلى توفر أمرين أساسين[٤]:

١. إتقان الصياغة **لمواكبة التطور في حقول العلوم الإنسانية والاجتماعية والسلوكية**؛ ذلك أن المتمكن من مواكبتهما، بل قائد الركب فيهما، وصاحب السبق في الإنجاب وفق جريهما، له الأولوية والحق قبل غيره في تسمية ما أنجبه، وإشهار اسمه لضمان انتماء مولوده لأصله، فلا ينعت إلا وفق شهادة ميلاده، مع ما يلزم من التنويه بمنجبيه، والإشادة بشجرة أسلافه.

ومنبع الإشكال هنا أن الابتكار المصطلحي – سواء في حقل المصطلح العلمي أو المصطلح السياسي أو الاجتماعي– لم يعد منذ قرون في حوزتنا، ولا هو اليوم نابع من داخل فكرنا وثقافتنا وحقول معرفتنا، ولا ما تبقى أو تجدد إنشاؤه من دور العلم ومراكز المعرفة لدينا بمقدوره ملاحقة سرعة ما ينجب ويولد كل حين من مصطلحات الفنون والعلوم والتقنيات والصناعات والممارسات في محيطنا.

٢. ويحتاج لإتقان الاقتباس أو الترجمة إلى **التوحيد في الدلالة والمفهوم**، حتى لا تختلط علينا الأسماء في وصف ما لم نلد، فنزيد الطين بلة، ثم نتيه في حقل المصطلحات بين اختلاط النعوت وجهل الأنساب، كما تاهت في مجال العلم عندنا الأسباب؛ وذلك أمر خطير نحسب أنه غير متوفرة إلى اليوم شروطه، وكأنه ممنوع عنا أو ويكأنه دائم الانفلات من عنكبوت شباكنا.

والقاعدة أن "**المصطلحات تنشأ من الاستعمال**"، وحقل استعمال المصطلح الذي نحن بصدد البحث في مفهومه عندنا ضعيف، يشهد على ضعفه غياب الصلاح لدينا في العديد من الميادين،

وخاصة في الدواليب والحقول المرتبطة بأدوات السلطة وآليات صنع القرار.

والاستعمال ينشأ ويسري في المجتمعات بفعل القرار السياسي، لا بتوصيات المجمع اللغوي؛ فاللغة ومصطلحاتها تسري في المجتمع بفعل القرار النافذ الجامع بعد صياغة المجامع، وبفعل السيادة في السوق؛ لا بسيادة السوق؛ ومن ثم كان الطبيعي أن يكون سراة القوم وأهل القرار فيهم من حماة خزان المصطلحات، وضامنو الرعاية لآليات حفظه وأدوات صنعه؛ فإن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن، وفي مجال المصطلح **يزع الله بصاحب القرار ذي الحنكة والعزم ما لا يزع بالخبير الراسخ في العلم والفهم**"[٥]. فكيف بنا إذا كان أهل القرار عندنا هم أسرع الناس إلى مصادرة حق استعمال مفاهيم المصطلح وخنق أنفاس تطوره؟

والممارسة ترسخ الأثر وتصقل النظر، وتعطينا حظًّا من المراجعة ومرانًا على المواجهة. ولهذا يعد من الغباوة عدم القيام بأي إصلاح إلى حين توفير الأمن الفكري وتحقيق الاستقلال في الحقل المعرفي واللغوي. بل إن حاجتنا إلى الاستقلال هي خير حافز لنا لتغيير الحال، وأقوى دافع لنا لممارسة الإصلاح دون كلل، مع إعطاء الأولية لمنظومة الأفكار والمفاهيم، عبر تنقيحها معانيها ودلالاتها من كل دخن وارد، وحفظ استغلالها من كل شيطان مارد.

٥. من عدم الصلاح ادعاء فقر المصطلح:

من الأبعاد الأربعة التي بسطناها لإبراز الإشكال تنبثق إشكالات فرعية تزيد الإشكال الأساس حدة، منها دعوى أن مفهوم الإصلاح فقير من حيث الدلالة، محصور المعاني والمرادفات في تراثنا العربي الإسلامي؛ ذلك أنه لا يعدو أن يراد به في كل حال إزالة الفساد، بيد أن الاطلاع السريع على المعاجم يدلنا على ما زخرت به اللغة من المصطلحات والمفردات التي يراد بها الإصلاح في كل ميدان وقطاع[٦].

فكما سبق القول منا فإن الاصطلاح ينشأ من الاستعمال، وحينما تتعطل محركات النهوض والتألق الحضاري؛ يكون أول من يعاني من العقم جهاز توليد المصطلحات وخزانه الخاص بالمعاني والدلالات.

فكيف سيكون تعريفنا هذا نفسه لو كثر في بحثنا الحالي استعمال ألفاظ **الثم، والرم،** ّ **ورأب الثأي، والترقيح، والتدويك، والروبة، والقوس،** وغيرها كثير؟

فقد وردت في معاجمنا العربية ألفاظ ومصطلحات دالة على **الإصلاح** حسب مجال المصلحين في شتى الواجهات والقطاعات، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

- **التدويك: وهو إصلاح القوم أمرهم** (كتاب الجيم لأبي عمرو إسحاق بن مرّار الشيباني).
- **والتَّـرْقِيح والتَّـرَقُّحُ إصلاح المعيشة** (لسان العرب). **والترقيح: اصلاح المال، يقال للتاجر: مرقح. ومن ذلك قول بعض قبائل العرب في تلبية الحج في الجاهلية: " لم نأت للرقاحة، جئناك للنصاحة** "(غريب الحديث لابن قتيبة).
- **ورأب الثأي: إصلاح الفساد** (الفائق في غريب الحديث و الأثر للزمخشري).
- **والثم: إصلاح الشيء وإحكامه يقال منه: ثممت أثم ثمًّا** (غريب الحديث لابن سلام).
- **والثَّمُّ إصلاحُ الشيء وإحكامُه وهو والرَّمُّ بمعنى الإصلاح** (لسان العرب).
- **والرَّمّ: إصلاح الشيء الذي فسد بعضه... ورَمُّ الأَمر إصلاحه بعد انتشاره،... رَمَمْتُ الشيء أَرُمُّهُ وأَرِمُّهُ رَمّاً ومَرَمَّةً إذا أَصلحته، والرَّمُّ إصلاح ما فسد ولَمُّ ما تفرق،... ورَمَّ الشيءَ يَرُمُّهُ رَمّاً**

أَصلحه، واسْتَرَمَّ دعا إلى إصلاحه (لسان العرب).

- **والقوْس:** ُ **إصلاح المعيشة** (تهذيب اللغة للأزهري).

- **والتثبيتة: إصلاح الشيء والزيادة عليه** (تهذيب اللغة للأزهري).

- **ويروب: يصلح، من قول الأعرابي: راب، إذا أصلح، قال: والربوة: إصلاح الشان والأمر** (تاج العروس من جواهر القاموس، لمحمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، الملقّب بمرتضى).

- **والنَّكْنَكَةُ : إِصْلاحُ العَمَلِ** (تاج العروس).

فمن سيفهم برنامج حزب أو تيار إصلاح يطالب **بتدويك** الشأن السياسي، **وترقيح** الواقع الاقتصادي، **وترقح** حال معيشة الأفراد، **وتثبيتة** القرار الحكومي، **ورم** الوضع الاجتماعي، **وقوس** أوضاع المعيشة، **ورأب الثأي** في دواليب الإدارة، **وثمّ** الوضع الأمني، و**تمّ** المجال العسكري، والقيام في كل ذلك بجهد ملموس يحقق للمجتمع **الروبة**، ويميز جهازه القيادي **بالنكنكة**؟؟....

فهذا الثراء في المعاني والمرادفات يدل على الحضور التاريخي للإصلاح في تراثنا في شتى الحقول والميادين، وإن كان في معظمه يراد به إبعاد الخلل وإزالة الفساد. فالإصلاح مثل الماء ينبغي أن يفهمه الجميع دون مثاقفة ولا تفلسف، لأن الجميع مدعو للقيام به، والحفاظ على ديمومته، والضرب على يد من يهدد بقاءه ويمس أركانه.

فحسبنا من معاجمنا التراثية تلك الإشارات السريعة للدلالة على عدم صواب رأي من زعم أن مفهوم "**الإصلاح**" في تراثنا العربي والإسلامي ضعيف الدلالة، ولا يفي بسدّ ما نرومه من إصلاح سياسي واجتماعي واقتصادي معاصر.

ومن ثم كان اتهام مفهوم "**الإصلاح**" في التراث العربي الإسلامي بالضعف مردودًا. فلو اتجهنا نروم عدّ معاني مفهوم "الفساد" في عريق معاجمنا وقواميسنا لارتوينا من مناهلها الشيء الجمّ، ولقدمنا الدليل تلو الدليل على غنى حقولنا المصطلحية وثراها حين الاستعمال حرثًا وصقلاً للألباب! فلا آبارنا معطلة ولا غاض في عيونها عذب الشراب!!

ولو فتحنا موقعًا بريديًّا وقلنا للناس من بلداننا أرسلوا لنا المسميات التي تصفون بها ما ترونه في مجتمعكم ومحيطكم من فساد وإفساد للزم لتدوين ما سيردنا ضخام المجلدات! لأن المصطلح سيظل ينشأ من الاستعمال، والفساد والإفساد مستعملان بكثرة في واقعنا المأزوم، ولم نلمس في محركاتهما حاجة إلى الإصلاح!!

فالعيب في من ظل مبذرًا في السنوات السمان ومتسوّلاً في العجاف، لا في شحّ الآبار وغيضها حين الجفاف! فلو أثرينا المعاجم بالجديد لاهتزت حقولها وربت، ولكن ما زرعنا ولا كنا منذ أزمنة زارعين! بل انقسمنا في معظمنا بين "خمّاس"[٧] في حقول الزراع، ومتسوّل بقايا زرع بعد موسم حصاد، ومحاول منع حصاد قوم آخرين. شعارنا "زرعوا فأكلنا ونأكل فيزرعون"!

ولا حاجة للتذكير بأن الاستعمال في اللغة يدفع للتطوير والتوليد. وأن من عَدُم الاستعمال ظل خارج حركة النمو، عقيم الرحم الحضارية. فمن العرف الإنساني أن صاحب الشيء يسميه، ومبلغ حظ المنبهر به في يد غيره محاولة تبنيه، وهو حين لا يرجعه عند ذكر النسب لأصله يفتح عليه بابًا جديدًا من التيه، التيه اللغوي والحضاري، المفقد للهوية، والمضعف للشخصية.

ومجمع القول إن رحم اللغة ما غاضت ولا عقمت، ولكن شُغِل من كان أهلاً لتغشيها بعاديات الجواري، لا لهن امتياز بلاغة ولا هن في الجمال ملك. بل على طول مكثه في نواديهن لم تهمس قط في أذنه

أي منهن هيت لك!! وللإنجاب ضوابط شرع وقارّ سنن، عاش من عاش وهلك من هلك!

فالفحل الولود يلد الولد ويختار اسمه، والمتبني الواعي قد يحسن اختيار اسم مرادف من خزان تراثه لإتقان تبني ما تبناه، والعقيم كثيرًا ما تختلط لديه الأسماء والمسميات، فيلج من كل باب؛ إذ تضاربت في ذهنه الأنساب!

٦. فهل من دلالة سليمة لمفهوم الإصلاح؟

للإصلاح استعمالات كثيرة ومعاني متعددة، فمرة يراد به التحديث والتطوير، ومرة يراد به النهضة والتمدن، وأخرى التغيير والتجديد، وغير ذلك من الاستعمالات المعاصرة التي تمليها الرغبة في إزالة ما يعوق ويفسد ويشد المجتمع إلى الوراء.

فالإصلاح والكلام حول دلالاته واستعمالاته أمر قديم قدم الفساد. وسيظل الكلام حوله مفتوحًا وثريًا ما دام هناك حاجة لإصلاح. ونحن لا نريد أن ندخل في المدلول السياسي أو الاجتماعي للإصلاح؛ لأننا في كل ذلك سنعبر عن موقف وننطلق من مرجع، وقد تركنا ذلك لأهل الاختصاص لشحن المفاهيم في جوانبها التطبيقية حسب مضمون مشاريعهم وصلاحية تنفيذها في واقعنا المعقد.

لكننا في هذا الجانب نشير إلى أمرين هامين:

- **الأول** أن **المدلول السياسي المعاصر ظل وإلى اليوم مرتبطًا بعصر النهضة الأوروبي**، والذي هو نفسه متأثر بحركة الإصلاح الديني "اللوثرية"[٨]، وسيظل التأثير يتسع في مناخ تفكيرنا وثقافتنا ما دام النموذج الأوروبي قائمًا يشهد بإصلاحه التطبيقي والنسبي، على أن ليس في الإمكان إلا ما صار عليه ما دام هو الغالب، إلى أن تدور رحى التداول جهة الصين أو دولة تصنف اليوم ظلمًا أو عرفًا في الأسفلين، فيتشكل عند أهل الاقتباس شكل الإصلاح الرائع حسب منظور الغالب الجديد في ساحة الواقع!
- **الثاني**، ومن التيه الغفلة عنه أن **الدراية بمفاهيم ودلالات المصطلحات تحتاج إلى معرفة ودراية باللغة**، فلا يدرك خبايا وأسرار معاني الألفاظ إلا العارف المتمكن من النطق السليم والتعبير القويم. فكيف بنا إذا كان عدد غير قليل ممن يفترض فيهم الرسوخ في اللغة من كتاب وأساتذة يعانون من الضعف في البيان والبعد عن دلق اللسان!

فكم من مرة في زمننا الفقير للصلاح المفتقر إلى الإصلاح -إصلاح الميزان والسلطان وحال الإنسان ومنطوق اللسان- شخّصت أبصارنا جهة من يحمل من الألقاب العلمية ما يسوءه عدم نعته بها، وهو يلحن بشكل لو حضر تلامذة سيبويه لتمنوا أن يعودوا من حيث أتوا ولأساءوا بنا ظنًّا، أو لاشترطوا سكوت المخاطب أو يضعوا في آذانهم قطنًا!

فقضية اللفظ والمعنى من القضايا التي تم تناولها في كل لغة حية نشطة من طرف خبراء أهلها بما يمكن من إثراء حقولها الاصطلاحية ومفرداتها اللغوية.وما زالت لغتنا تحتاج إلى المزيد من البحث المعمق المواكب لمستجدات العلوم في هذا المجال. وإذا كنا نحتاج إلى الصلة الراسخة بين اللفظ والمعنى، وأن نحمي دلالاتها من التوظيف الانتهازي والتلاعب الظرفي، فإننا إذا رمنا الصواب وفصل الخطاب فإنه يكفينا أوجز التعريفات لإنجاز أكبر المشاريع الحضارية.

فنحن لا نحتاج إلى كثرة الألفاظ للإشارة لشيء يخصنا، نحس بالحاجة لنحت لفظ لنعته واصطلاحنا عليه، حتى ولو كان نطقه ركيكًا. نعم، سيكون أحسن لنا وأنسب للغتنا أن يكون جميل التركيب حسن الصياغة، لكن الأهمية هي في الإجماع المتحصل حوله حين الاستعمال، لا فيما لكتابة حروفه من الرونق والجمال!

وتوحيد المصطلح يحتاج إلى أشكال متعددة من التوحيد، وعلى رأسها وحدة المنهج التعليمي، ووحدة القرار السياسي، ووحدة المرجعية الفلسفية والعقدية. فلا يمكننا خارج ذلك الوصول إلا بشق الأنفس لنوع من الاستعمال اللفظي الناسف بشططه وتنافره لكل مشروع وحدة لا في الشرعة ولا في المنهاج.

وكما نبهنا في دراسات سابقة؛ فإن "وحدة المصطلح جزء من وحدة خطاب الإصلاح، والذي يحتاج أن يتشكل في مؤسسات ودوائر لها فعل التأثير والضغط والإجبار تشويقًا وتخويفًا؛ تشويقًا لمزيد من الحصانة والقوة، وتخويفًا من انهيار ما تبقى واندثاره"[٩].

• مفهوم الإصلاح في القرآن الكريم:

سنقف مطولاً مع مفهوم الإصلاح في القرآن الكريم؛ لأننا نراه أهم محدد لدلالات المفهوم في اللغة العربية، وإن لاحظنا أن القواميس لم تمعن النظر في تلك الدلالات فتدرجها بتفصيل في نصوصها؛ حيث اكتفت بالإشارة إلى بعض الآية لتأكيد ما تعرف به لا لاستنباط التعريف منه.

ورد لفظ الإصلاح في القرآن الكريم -إذا اكتفينا بمشتقات فعل أصلح وحده دون فعل صلح- في ٢٢ موضعًا بشتى الصيغ الفعلية والإسمية:

١. **(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ)** (هود:٨٨).

ونستنتج من الآية أن **الإصلاح** من حيث المضمون بذل الجهد إلى أقصى ما يسمح به المستطاع لإزالة ما يفسد واقع الناس في نفوسهم ومجتمعهم، وأنه من حيث الشروط يستلزم من جهة **عدم السعي للمصالح الشخصية** وذلك بالتزام الإنابة إلى الله وحسن التوكل عليه، ويفرض أساسًا **على دعاته أن يكونوا من أول الملتزمين ببرنامجه ومشاريعه**، وأن لا يخالفوا الناس لما ينهونهم عنه.

٢. **(... وَيَسْأَلونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لاعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)** (البقرة:٢٢٠).

ونستخلص من الآية أن **من الفساد المنّ على الناس بالإصلاح**؛ لأن الله وحده هو الذي يعلم حقيقة المفسد من المصلح، فكلاهما يدعو للصلاح؛ الأول عن سوء نية، والثاني عن حسن قصد وبينة. **فالجهات التي تفتقر للرعاية -مثل اليتامى- لا تحتاج فقط إلى العناية؛ وإنما للإصلاح الشمولي بكل معانيه الجالبة للخير، مع الاختلاط بهم ومشاركتهم وإشراكهم في المشاريع والقضايا التي تهمهم.**

٣. **(وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ وَلا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلاحاً وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)** (البقرة:٢٢٨).

٤. **(وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً)** (النساء:٣٥).

وبعيدًا عن الموضوع الخاص للآيتين السابقتين وأحكامه؛ فإننا نستنتج منهما أن **الإصلاح إرادة، وثبات على التعامل بالمعروف، واحتكام حين الاختلاف إلى أهل الدراية والعلم والحكمة.**

٥. **(لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً)** (النساء:١١٤).

ومن هذه الآية أن **الإصلاح وإن كان يتوخى المرونة فإنه يرفض أن يكون برنامجًا سريًّا** تتناجى به أطراف محددة، ولكن **الإصلاح مشروع علني**، باستثناء قضايا فردية واجتماعية محددة بنجوى الخير المتعارف عليها بين القوم.

٦. **(وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ)** (لأعراف:١٤٢).

٧. **(وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ)** (لأعراف:٥٦).

٨. **(وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)** (لأعراف:٨٥).

من دلالات هاذه الآيات الثلاث وغيرها استنتج خبراء المعجمية و"علماء القاموس" أن **الإصلاح إزالة الفساد، وترسيخ للميزان بما فيه الميزان السياسي والفكري، وعدم بخس الناس أشياءهم، المادية والمعنوية.**

٩. **(إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً)** (النساء:١٤٦).

١٠. **(فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)** (المائدة:٣٩).

١١. **(وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ)** (الأنعام:٤٨).

١٢. **(وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)** (الأنعام:٥٤).

١٣. **(يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ)** (لأعراف:٣٥).

١٤. **(إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)** (النور:٥).

١٥. **(وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ)** (الشورى:٤٠).

١٦. **(ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)** (النحل:١١٩).

في التسع آيات السابقات يتبين أن **الإصلاح ليس فقط ضد الفساد، بل ضد الظلم بشتى**

أنواعه، فكل إزالة للظلم، على المستوى الفردي أو الجماعي إصلاح. كما نجد الإصلاح مقرونًا بالاعتصام بالحبل المتين، والهدي على صراط مستقيم، والتوبة والمغفرة والرحمة؛ بمعنى أن **الكل مدعو للإصلاح، فمشروع الإصلاح في أي ميدان شئنا ينبغي أن يتسع ليشمل التحاق من كان يعاكسه دون خوف منه ولا خوف عليه.**

١٧. **(يَسْأَلونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)** (لأنفال:١).

١٨. **(فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ)** (الانبياء:٩٠).

١٩. **(وَوَصَّيْنَا الْأِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)** (الاحقاف:١٥).

٢٠. **(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ)** (محمد:٢).

في هذه الآية نسب الإصلاح إلى الله عز وجل، وهو يدل على أن **البال واللب وأداة الدرك أحق بالتعديل والتبديل والتطوير والإصلاح، وأن العمل الصالح وتوخي الحق والوقوف بجنبه يؤدي حتمًا وفق سنن الله وإرادته إلى الصلاح.**

٢١. **(وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)** (الحجرات:٩).

٢٢. **(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)** (الحجرات:١٠).

نستخلص من الآيتين أن **من يتوخى الصلاح عبر تصنيف الناس واتهامهم بالكفر بمجرد أن خالفوا ما يراه إصلاحًا بعيد كل البعد عن المفهوم الصالح والراسخ للإصلاح**، فحتى لو بغى فريق على فريق، ولو بحجة توخيه الصلاح، فإن وصفه بالمؤمن، بل اعتباره أخًا مشاركًا في الإصلاح هو عين الصلاح!

كما أننا نستنتج من هذه الآيات مجتمعة ومتفرقة أن الإصلاح في المجتمع المتمثل لتعاليم القرآن الكريم يمارس على كافة الأصعدة فرديًّا وجماعيًّا، فهو سمة المجتمع المؤمن ومشروعه المفتوح والمستمر. فالإصلاح من المنظور القرآني شمولي، عميق الجذور في الذات الفردية والجماعية، يستوجب المراجعة الدائمة وإعادة التزود الموائمة، فهو يجري في شراييها مجرى الدم؛ إذ لا مجال لبقاء العضو الميت إذا ما استنفذت الطاقات لإعادة الحياة له، ولا حل إلا بتره خشية سريان الموت إلى كافة الذات.

- **الإصلاح في القواميس العربية:**

جاء في "**لسان العرب**" لابن منظور: مادة صلح:

(صلح): الصَّلاح ضدّ الفساد صَلَح يَصْلَحُ ويَصْلُح صَلاحًا وصُلُوحًا وأَنشد أَبو زيد فكيفَ بإِطْراقي إِذا ما شَتَمْتَني؟ وما بعدَ شَتْمِ الوالِدَيْنِ صُلُوحُ، وهو صالح. وصَلِيحٌ الأَخيرة عن ابن الأَعرابي والجمع صُلَحاءُ وصُلُوحٌ.

ورجل صالح في نفسه من قوم صُلَحاء ومُصْلِح في أَعماله وأُموره وقد أَصْلَحه الله، وربما كَنَوْا بالصالح عن الشيء الذي هو إِلى الكثرة...

والإِصلاح نقيض الإِفساد والمِصْلَحة الصَّلاحُ والمِصلَحة واحدة المصالح، والاسْتِصْلاح نقيض الاستفساد، وأَصْلَح الشيءَ بعد فساده أَقامه، وأَصْلَحَ الدابة أَحسن إِليها فَصَلَحَتْ، وفي التهذيب تقول أَصْلَحْتُ إِلى الدابة إِذا أَحسنت إِليها.

والصُّلْحُ تَصالُحُ القوم بينهم، والصُّلْحُ السِّلْم، وقد اصْطَلَحُوا وصالحوا واصَّلَحُوا وتَصالحوا واصَّالحوا مشدّدة الصاد قلبوا التاء صاداً وأَدغموها في الصاد بمعنى واحد، وقوم صُلُوح مُتصالِحُون، كأَنهم وصفوا بالمصدر والصِّلاحُ بكسر الصاد مصدر المِصالَحَةِ والعرب تؤنثها. والاسم الصُّلح يذكر ويؤنث، وأَصْلَح ما بينهم وصالَحَهم مُصالَحَة وصِلاحاً... وصَلاحِ وصَلاحٌ من أَسماء مكة شرفها الله تعالى، يجوز أَن يكون من الصُّلْح لقوله عز وجل حَرَماً آمناً ويجوز أَن يكون من الصَّلاحِ... وقد سمَّت العربُ صالحاً ومُصْلِحاً وصُلَيحاً.

وجاء في كتاب "**القاموس المحيط**" للفيروز آبادي:

الصَّلاحُ ضِدُّ الفَسادِ، كالصُّلوحِ. صَلَحَ، كمَنَعَ وكَرُمَ، وهو صِلْحٌ، بالكسر، وصالِحٌ وصَليحٌ. وأَصْلَحَه: ضِدُّ أَفْسَدَه، وإليه: أَحْسَنَ. والصُّلْحُ، بالضم: السِّلْمُ، ويُؤَنَّثُ، ... وصالَحَهُ مصالَحَةً وصِلاحاً، واصْطَلَحا، واصَّالَحا، وتَصالَحا، واصْتَلَحا. وصَلاحِ، كقَطامِ، وقد يُصْرَفُ: مَكَّةُ. والمِصْلَحَةُ: واحِدَةُ المَصالِحِ. واسْتَصْلَحَ: نَقيضُ اسْتَفْسَدَ.

وجاء في "**مختار الصحاح**" لزين الدين الرازي:

ص ل ح: الصَّلاح ضدّ الفَسَاد وبابه دَخَل. ونَقَل الفَرَّاء صَلُح أيضاً بالضم. وهذا يَصْلُح لك أي هو مِن بابِتَك. والصِّلاحُ بالكسر مَصْدر المصالَحَة والاسم الصُّلْح يذكَّر ويؤنث. وقد اصْطَلَحا وتَصالَحا واصَّالَحا بتشديد الصاد. والإصْلاح ضدُّ الإفْساد. والمِصْلحة واحِدةُ المَصالح. والاسْتِصْلاح ضِدّ الاسْتِفَساد.

- **الإصلاح في القواميس الغربية:**

في اللغات الغربية يقابل لفظ "**الإصلاح**" العربي مصطلحان: الأول : «*réforme*» والثاني : «*réparation*». وإذا ما اكتفينا بما أورده قاموس "لو **روبير**" **(Le Robert)** الفرنسي الشهير، والذي نرى أنه قد استوعب ما جاء في قواميس أشهر اللغات الأوربية، نجد التعريف الآتي[١٠]:

١. بالنسبة لمصطلح «*réforme*»:

- **النشأة:** سنة ١٦٢٥.
- **المعاني:**

١) تطوير حاصل في المجال الأدبي والاجتماعي.
٢) إعادة القانون البدائي لتنظيم ديني.
٣) تعديل عميق في شكل مؤسسة رغبة في تطويرها والحصول على نتائج أحسن.
٤) تطوير جزئي ومتنامي للوضع الاجتماعي (ضد الثورة).
٥) طرح من دائرة الاستعمال لشيء أصبح غير صالح (تطور في المفهوم سنة ١٧٦٢).
٦) وضع جندي معفى من التجنيد لعذر صحي أو عقلي.

٢. بالنسبة لمصطلح «*réparation*»:

- **النشأة** : القرن الثاني عشر الميلادي عبر الاقتباس من اللفظ اللاتيني «*reparare*».

● **المعاني:**

١) إعادة إلى وضع جيد (لشيء أصابه العطب والخلل).

٢) إزالة واجتثاث (لآثار التفسخ أو التآكل من شيء ما).

٣) حذف أو تعويض (من جراء حادث أو خطأ).

فالإصلاح من المنظور الأوروبي هو "**إعادة تشكيل**"، و"**البحث عن وضع جيد**"، و"**حذف وتعويض**" و"**تطوير وتعديل**"، و"**إزالة ما لم يعد صالحا للاستعمال**"، وكلها معاني يستوعبها "**مفهوم الإصلاح**" في القواميس العربية الذي يلخص المضمون في "**إزالة ما يهلك ويفسد ويعوق ويعطل**".

وإعادة التشكيل تفترض أن المراد إصلاحه قد انتهى تاريخ صلاحيته، وانقضى زمن حياته، ويحتاج إلى إزالة أو تفكيك ليحل محله شيء جديد تمامًا. وأذكر حين بدأت حياتي الإدارية مهندسًا محافظًا للأشغال العامة بأحد الأقاليم الجنوبية بالمغرب. كنا نكتب العبارة الفرنسية "*à réformer*" على كل سيارة أو آلة يلزم أن تقصى من حضيرة الآلات والسيارات حتى لا يصرف على إصلاحها درهم واحد لأنها أضحت مكلفة مقارنة بما يتوخى منها من ضعيف ومحدود الفائدة والمصلحة، وأن اقتناء الجديد أولى بالصرف وأحق بالدعم.

ويلاحظ أن المنظومتان العربية والغربية تختلفان في النظر للجوهر والصورة، ففي العربية ينظر للفساد على أنه شيء طارئ يستوجب الإصلاح السريع، وسكوت الناس عنه الذي أصبح متمكنًا يقتضي الإسراع بالإصلاح الجذري مع الصبر والرحمة والمغفرة، بيد أننا في المنظور الغربي نلاحظ أن الإصلاح مقترن بأصول تطبيق في زمن كان فيه الفساد في المجتمع متجذرًا، زمن انتشار فلسفة الأنوار والإعداد للثورة الفرنسية في القرن السادس عشر، ولهذا ظل يصاحب مفهوم الثورة يهذبه مرة ويألبه مرة.

وإذا كانت الثورة قد نتج عنها غير قليل من الإصلاح في الغرب الأوروبي؛ فإنها منذ تطبيقاتها الأولى في البلدان العربية الإسلامية لم يتولد عنها إلا مزيد من الفساد أو التهيئة لأجيال إفساد.

أكيد أن العديد من الأنظمة تحتاج إلى أن توضع عليها علامة "*à réformer*"، ولكن نحتاج قبل كل شيء إلى ضبط مراجع وأصول الإصلاح، والإجماع على نخبة من أولي النهى، حتى من داخل الأنظمة، مشهود لها بالصلاح!

٧. أسلم دلالة للإصلاح هي ما يمليه الواقع ليرقى نحو الصلاح:

وكما لاحظنا الإصلاح في مفهومه الأصيل يقوم على إيجابية تتعدى الصلاح الفردي إلى صلاح المجتمع : "**فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ**" (هود:١١٦). فالإصلاح من هذا المنظور ينبغي أن يرتبط بتحليل الواقع وعلاجه من طرف سراة واعية مؤهلة تنهض بمهامه، لا أن يكون قضية يتبناها الفكر الفلسفي أو السياسي دون مشاريع تتجسد على أرض الواقع.

فماذا سينفع لو قام فريق من خبراء اللغة بالإفاضة والتدقيق في تحديد وشرح مفهوم الإصلاح، ثم انتهى بتدوين أعماله في مجلدات، وظل واقعنا يزداد فقرًا للإصلاح؟ وما عسى يضيع من لغتنا وفهمنا لو انطلق فريق من المخلصين من أن الإصلاح كنهه إزالة الفساد، ووضعوا برنامجًا للتعجيل بإزالة ما يجمع كثير من العارفين أنه فساد؟ فأي الفريقان أحق بالانتساب للإصلاح وأولى بالدعم؟

وأساس المشكلة يكمن في عدم امتلاك ناصية حركة الواقع وحضور الغير فيه بشكل طاغ محددًا وموجهًا وقائدًا. فهناك استباق بين أطراف خارجية على امتلاك زمام واقعنا، والأسبق منها يملي علينا تغييرًا باسم الإصلاح، يديم بقاء الزمام بين يديه، ومنع غيره من الوصول إليه.

ومعالجاتنا المتعددة للواقع لم تأخذ بعد مأخذ الجد جانب اللغة، وما يحدده من مفاهيم ومصطلحات؛ فهي القوالب الأساسية للأفكار والوعاء الرئيس للمنطلقات، والتي يلزم أن تحتل عندنا في مجال إستراتيجية الإصلاح الأولوية، وفي الإسراع بالنهوض بها الإجماع أو الأغلبية. فنحن كثيرًا ما نبتر المواضيع التي نتناولها بالدرس والتحليل عن روابطها بتربتها ومحيطها، ونختزلها في قوالب مشوهة للأصل، منقطعة عن الجذور، منفصلة عن ما يشدها لغيرها من العلاقات، منزوعة الصلة بدوافع التطور والنماء ومحركات الصمود والبقاء، مثل الذي يقتطع من البحر أو النهر قطعة يحللها ليطهرها من التلوث، متخيلاً أن البحر أو النهر سينفلق بما يجعل مكان تلك القطعة العينة بارزًا باقيًا على حاله إلى أن تستعيد مكانها فيه، ومبلغ رشده، وأمثل طريقة فكره أن الحل الأنسب يكمن في تقسيم الجانب الملوث من اليم إلى قطع يتناولها بالتحليل والتطهير تباعًا، وما عليه من بعد إلا إرجاع كل قطعة انتهى منها لمكانها الذي سيظل ينتظر في ذهنه رجوعها إليه. ولئن التمسنا عبثًا أن نجد لتفكيره المختل عذرًا، ونقبل تقسيمه المعتل للعمل كرهًا، فسنعدم دفاعًا عن غياب ملاحظته أن القطع ذاتها لم تكن قط، وهي بين يديه على الشكل الذي كانت عليه!

فالكثير منا ينزعج من إقدام غيرنا على الخوض في شئون إصلاحنا؛ بل فرض صور من الإصلاح علينا، لكنه لا يحرك ساكنًا لإصلاح مثل الذي يرى الباطل يتسع ويزحف منتظرًا دون حضور للحق، وقذف بالحق أن ينقلب الباطل زهوقًا؛ ظانًّا أن الوضع وإن تفاقم فلن يفضي بالذات إلى ما ينبئ به "المتشائمون" من المخاطر، كمن يرى أن لو هوت الأرض من تحته، فإنه سيظل ماشيًا في الهواء حينًا من الدهر إلى أن يجد للنجدة سبيلاً، كمن يركض فوق سطح الجبل ثم يلقي بنفسه في الهواء فيتخيل نفسه ماشيًا مسافة يستيقظ بعدها وعيه ليفتح عينيه على فراغ من تحت رجليه، يبدأ بعدها مباشرة ترديه، وهذا شيء لا يحدث إلا في الرسوم المتحركة!!.

هوامش الدراسة

(١) **غافر: ٣٨.**

(٢) **غافر: ٢٨– ٢٩.**

(٣) أول ما صدرت مني هذه العبارة علنًا كان حين انعقاد ندوة قيمة بالرياض نظّمها "**مركز الملك فيصل للبحوث الإسلامية**" بالتعاون مع "**مركز دراسات الإسلام والديمقراطية في أمريكا الشمالية**" يومي ١١ –١٢ ذي القعدة ١٤٢٦، الموافق ١٩–٢٠ ديسمبر ٢٠٠٥ حول موضوع "**الشورى والديمقراطية والحكم الرشيد**"؛ حيث لمست تكرار عبارات التخوف من مصطلح "**الديمقراطية**" كما هو العهد بالعديد من الندوات والمؤتمرات التي تناولت موضوع الشورى والديمقراطية بالأمس القريب.

فنبهت إلى أننا في ممارسة الشورى لسنا أهلاً بتحديد مضامينها بدقة، ولا بتقديم الدروس فيها بكفاءة، نظرًا لضعف تجربتنا الشورية، وخجلاً من سعة حجم مجلدات تاريخ الاستبداد ببلداننا العربية. أما الخوف من مصطلح "**الديمقراطية**" بحجة أنه مستورد وليس واردًا في الكتاب والسنة فإنه يحتاج لتبريره إلى مزيد من الأدلة المقنعة. فلقد استوردنا "**ولاية العهد**" مصطلحًا وممارسة وليست لا في كتاب ولا في سنة! ومن ثم كان شتم البعض منا للديمقراطية –وهي نظام حكم لمسنا جانبًا من مزاياه عند غيرنا– دون ممارسة للشورى، ولا اعتكاف على دراسة واقتباس محاسن الديمقراطية أمرًا مردودًا. ثم ذكرت بالشكل المشار إليه دلالة عدم الأهلية الفطري لقاطن المستنقعات من أن يتقن ويحسن التمييز بين أنواع الطيب أيًّا كان منبعها أو شكلها.

(٤) "**المصطلح العلمي بين المستقبل المفقود والتيه المشهود**"، د. محمد بريش، "**مجلة دراسات مصطلحية**"، حولية محكمة يصدرها "**معهد الدراسات المصطلحية**" بفاس– المغرب، العدد الثالث، ١٤٢٤– ٢٠٠٣، ص ٦٨– ٦٩.

(٥) اقتباسًا من العبارة الواردة عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه كما رواها الجلال السيوطي في تفسيره "**الدر المنثور في التفسير بالمأثور**": "**والله لما يزع الله بالسلطان أعظم مما يزع بالقرآن**".

(٦) اعتمد الذين ادعوا القول بأن مفهوم الإصلاح ضعيف في دلالته إذا ما اكتفي بما في المعاجم العربية التراثية على رأي للدكتور محمد عابد الجابري في كتابه "**في نقد الحاجة إلى الإصلاح**" (مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، بيروت، سبتمبر ٢٠٠٥)؛ حيث خصص الكاتب الفاضل القسم الأول لـ"**مفهوم الإصلاح في المرجعية التراثية**"، وقال تحت عنوان "مفهوم **الإصلاح مكبل بالشبهات..!**" : "لا تسعفنا المعاجم العربية القديمة بأي تعريف للإصلاح غير قولها "الإصلاح ضد الإفساد"، وإذا بحثنا فيها عن معنى الإفساد ردتنا إلى الإصلاح "الإفساد ضد الإصلاح"، والغريب أن المفسرين يكتفون بشرح مادة "صلح" ومشتقاتها، الواردة في القرآن الكريم بكثرة، بهذا النوع من التعريف بالسلب (صلاح : ضد فساد)." (ص ١٧).

وهذا القول من الدكتور الفاضل يحتاج إلى استقراء شامل للمعاجم والتفاسير، وهو ما لا يظهر من سياق الكتاب وهوامشه أنه قام به، ولا ضير في ذلك؛ إذ لم يدع قط زميلنا أنه مرجع معجمي! بل لم تفته الإشارة في الفقرات التالية إلى أنه لا يقصد من قوله ذلك "التقليل من انشغال الخطاب العربي الإسلامي، وفي مقدمته الخطاب القرآني والحديث النبوي، بمسألة الإصلاح والصلاح، كلا!" ... فـ "فكرة "المصلحة العامة" هي المرجع الأول والأخير للتشريع في الإسلام." (ص ١٨).

غير أن من انطلقوا من رأيه حملوا قوله؛ ما لم يقصد قوله، لأن حدود ما أراد وفق ما فهمناه هو البرهنة على أن الإصلاح في التراث العربي الإسلامي يُعنى بإزالة العقبات في وجه الذات ومنع تكبيل فكرة الإصلاح بالشبهات، بيد أنه في الفكر الغربي يُعنى بالصورة وإعادة تشكيل الذات. فهنا إزالة ما يعيب، وهناك إعادة ترتيب! ونحن نرى أن ممارسة الإصلاح، والتوليد الذاتي لأدواته المصطلحية الذي ينتج عنها، هما من يصقل المفهوم، ويرسخ صادق دلالالته في أذهان العموم!

(٧) **الخمّاس** في عرف أهل المغرب العربي هو الأجير الذي يتعهد بأن يقوم بكافة أعباء الزرع والحصاد لحقل من الحقول مقابل خمس ما حصد. وهي مهنة شريفة ونوع من الإجارة شرعي، لكن وظف المصطلح خارج مجال الزراعة للإشارة بشكل قدحي لمن يهب جهده لغيره دون امتلاك شيء من أمره.

(٨) نسبة إلى "**مارتن لوثر**" (١٠ نوفمبر ١٤٨٣– ١٨ فبراير ١٥٤٦)، وهو لاهوتي وراهب ألماني، أثرت تعاليمه بشكل كبير في نشوء مذهب البروتستانتية؛ حيث دعا الكنيسة إلى العودة إلى تعاليم الكتاب المقدس مما أدى إلى نشوء توجه جديد في المسيحية وصف بالإصلاحي.

(٩) "**المصطلح العلمي بين المستقبل المفقود والتيه المشهود**"، د. محمد بريش، ص ٦٦.

(١٠) اعتمدنا الطبعة الإلكترونية الصادرة عن مؤسسة "**قواميس لو روبير**" سنة ٢٠٠٢. ونشير إلى أن الكلمات بين قوسين هي من صلب النص المترجم حيث وردت فيه بين قوسين.